1) النصوص

إذا كانت مدرسة الإحياء قد بعثت القصيدة من انحطاطها وربطتها بمشاكل العصر، فإن المدرسة الذاتية أولت الذات الاهتمام والأولوية. عمل شعراء هذا الاتجاه على التعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم. وقد ربطوا هذه الأحاسيس، عادة، بالطبيعة التي شاركتهم نجواهم. كما استفادوا من اطلاعهم الواسع على الثقافات الأجنبية. ويُعتبر علي محمود طه من شعراء الذات إلى جانب جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وغيرهم. فما مظاهر ذاتية القصيدة التي نحن بصدد دراستها ؟

من ملاحظة عنوان القصيدة، ندرك أن النص رسالة إلى البحر الذي يعتبر من أبرز مظاهر الطبيعة التي ألقى الشاعر الذاتي بنفسه في أحضانها. ومن ثمَّ، نفترض أن القصيدة تنتمي إلى تجربة سؤال الذات، فلنتحقق من ذلك بالدراسة والتحليل.

ينادي الشاعر البحر، ويثير انتباهه إلى استئساد الليل وجبروته. هذا الجبروت الذي طغى على الموج، وأغرق النجوم. ثم ينتقل إلى التعبير عن وحشته وبُعد الأحباب عنه لدرجة أنه فَقَدَ الطموح والأمل، واستوت في نظره المتناقضات. وفي نهاية القصيدة، يجد الشاعر ضالته في البحر الذي جلس أمامه يتأمل ويتذكر. لقد وجد فيه الشفاء والأنيس الذي يلقي له بهمه وأعباء حياته.

ترتكز القصيدة على حقلين اثنين هما حقل الذات وحقل الطبيعة. أما الأول، فيتراكم من خلال "لي، قلب، عني، أنا، وحدي، هيمان، مسمعي.." ، وأما الثاني فيتمثل في "البحر، الليل، الكواكب، لج، الأمواج، الشاطئ، الطير.." . ونشير في هذا الصدد إلى أن العلاقة الناظمة لهذين الحقلين هي علاقة انفصال واتصال في الآن نفسه. ينفصل الشاعر عن الليل الذي بدا جبارا غير رحيم، غير أنه يتصل اتصالا وثيقا بالبحر الذي شكَّل في نهاية النص مصدر شفاء ورحمة بالنسبة إلى الشاعر.

لقد كان هذا الاندماج بعناصر الطبيعة وراء التجاء الشاعر علي محمود طه إلى اعتماد نوع من التصوير يُصطلح عليه بالتشخيص، وهو إسقاط صفات بشرية على غير البشر. وهكذا، اعتبر الشاعر البحرَ ذاتا تسمع وتفهم. وجَّه له السؤال في بداية القصيدة، واعتبره الطبيب في نهايتها. لقد ترك الشاعر الوجداني الإنسان وعالمه، وألقى بنفسه في عالم الطبيعة. لذلك، شخصها ليُحافظ على اجتماعيته وإنسانيته. ونعتبر هذا النوع من التشخيص التعويضي جديدا حملته تجربة سؤال الذات.

ونشير، من جهة أخرى، إلى أن الصورة عند الشاعر ترتكز على عناصر الطبيعة كما يبدو في العبارات "كيف تنجو من الليل" ، "هو بحر" ، "أو ما تبصر الكواكب غرقى ؟" . ويأتي هذا الاستلهام متناغما مع انصهار الشاعر الوجداني في الطبيعة وحلوله فيها. كما أن القصيدة لم تخل من البعد الإيحائي، وذلك حين اعتبر الشاعر الليل جبارا مستأسدا ليوحي باشتداد الهموم والمعاناة.

أما من حيث الأساليب، فقد زاوج الشاعر بين أسلوبي النداء والاستفهام. تمثل الأول في "أيها البحر" ، بينما تمثل الثاني في "كيف ينجو ؟" وتجدر الإشارة إلى أن الاستفهام في القصيدة يخرج عن معناه ليفيد أغراضا أخرى كالاستبعاد في قوله " أين مني منازل الأحباب ؟" ؛ فالشاعر يتذكر الدار والأحباب فيجدهم قريبين، غير أنهم في الواقع بعيدون كل البعد.

نظم علي محمود طه قصيدته على بحر الخفيف، وهو من بحور الخليل، يتميز بالخفة مقارنة بالبحور البطيئة الإيقاع كالطويل والبسيط والتي كانت تحضر بقوة في قصائد الفحول. لذلك، نعتبر انتصار شاعر سؤال الذات لهذا النوع من البحور الخفيفة تجديدا في إطار المحافظة على البحور الخليلية. وقد تبينَّ إخلاص الشاعر لعروض الخليل أيضا في اعتماد القافية الموحَّدة (حابي – O -O)، والروي الموحَّد (حرف الباء).

لم يكتف علي محمود طه بهذا الإيقاع الخارجي، بل عززه بآخر داخلي تمثل في التكرار الذي اتخذ مظهرا صوتيا في تكرار حرف الألف تسع مرات في البيت الرابع، كما اتخذ مظهرا معجميا بتكرار المترادف في البيت السابع «حيرتي، ارتيابي»، وتكرار المتضاد في «جيئة، ذهاب. ميلاد، موت».

استنادا إلى ما سبق، نستطيع القول إن قصيدة «إلى البحر» تراكم الكثير من خصائص اتجاه سؤال الذات ؛ فالشاعر عبرَّ بوضوح عن ذاتيته وما ميزها من ألم وأسى، كما أنه ألقى بنفسه في البحر باحثا عن الشفاء والبلسم. أضف إلى ذلك انفصاله عن عالم الناس، وتعويضه بعالم الطبيعة، الشيء الذي ترتب عليه تصوير التشخيص. غير أن الشاعر، في الآن نفسه، ظل لصيقا بطريقة القدامى في نظم الشعر، خاصة ما يتعلق باعتماد نظام الشطرين ووحدة القافية وحرف الروي.

أعتقد أن جهود اتجاه سؤال الذات عضدت العمل التأسيسي الذي أنجزه شعراء إحياء النموذج، فكان ذلك بوابة اعتمدها شعر الحداثة للثورة على القديم، وإحداث نمط جديد ومختلف في مجال النظم والقريض.

2) المؤلفات

كتاب «ظاهرة الشعر الحديث» لأحمد المجاطي دراسة علمية للتجربة الشعرية الحديثة في العالم العربي. وقد خصَّ الكاتب بالدراسة تجربتي الغربة والضياع والموت والحياة. غير أنه مهَّد لذلك بعرض الشروط التاريخية التي كانت وراء انبثاق التجربة الحديثة، فركَّز في تصدير مؤلَّفه على شعر الإحياء والشعر الذاتي. وهكذا، فالقولة التي ننطلق منها في هذا التحليل هي تصدير للقسم الأول من الفصل الأول الذي عرض فيه الكاتب مظاهر التطور التدريجي في الشعر الحديث، مقسما إياه إلى تطور في المضمون وآخر في الشكل.

أشار الكاتب في مؤلَّفه إلى أن التيار الذاتي في الشعر العربي جاء لتجاوز نقائص حركة الإحياء والبعث. لقد همشت هذه الحركة الذات وما يرتبط بها من أحاسيس ومشاعر يمثل الشعرُ البوتقة التي تنصهر فيها بصدق وعفوية. لذلك، عمل تيار الذات على تمكين مشاعر المبدع من النصيب الأوفر في التعبير والإبداع. وقد ظهرت في هذا الصدد «مدرسة الديوان» (العقاد والمازني وشكري) التي فتحت المجال للتأمل في أعماق الذات الشعورية واللاشعورية. وظهرت أيضا «الرابطة القلمية» المهجرية (جبران وأبو ماضي ونعيمة..) التي تأثرت بالثقافة الغربية، كما استحضرت تجربة الغربة في شعرها. تنبثق الحياة عند المهجريين من الذات لا من خارجها، ثم إن الطبيعة بالنسبة إليهم بديل للإنسان. وفي هذا الإطار الذاتي أيضا، ظهرت مدرسة «أبولو» (أبو شادي وعلي محمود طه والشابي) التي أتاحت للشاعر التغني بآماله وآلامه، والافتتان بجمال الطبيعة ووحشتها.

إلا أن أحمد المجاطي خلص في معالجته للذاتية في الشعر العربي الحديث إلى نتيجة أشار فيها إلى محدودية هذه التجربة. فالتجديد عندها محدود لا يكاد يتعدى بضعة شعراء، بل إن الشاعر المجدد فيهم تجده يسقط في أحيان عدة في براثن التقليد والتبعية. ثم إن التجربة الذاتية لم تنجح في نظر الكاتب لأنها على مستوى المضمون سقطت في الأنين والبكاء، ولم تنجح في استشراف المستقبل والخلاص.

اعتمد المجاطي في معالجته لهذا الموضوع إطارا مرجعيا اتخذ شكلا تاريخيا حين استقصى الظاهرة وتطورها وعوامل هذا التطور، واتخذ شكلا نفسيا حين الحديث عن تجربة الذات، إذ ركز الكاتب في هذا الصدد على مفاهيم تدخل في المجال النفسي كاللاشعور والوجدان والنفس وغيرها.